إقليم الدولة حدود سياسية ووجهة دينية في آيات القرآن

✍ د. أسامة محمد عثمان خليل (★)

مقدمــة:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾(١)، فاوت الله بين الأمم إما على الهداية أو على ضلالة، وله الحكم والحجة البالغة، إذ جاء القرآن ديناً لينذر أم القرى (إقليم محدد) ومن حولها. فلما خرجت الجزيرة العربية من الجاهلية إلى الإسلام (كإقليم دولة) حملت راية الإسلام وتعدت الحدود السياسية للبلاد الأخرى شرقاً وغرباً التي كانت عند ميلاد الرسالة تتقاسمها أربعة أقاليم (حدود سياسية) كبيرة وهي الإمبراطوريات الأربع: الرومانية، الفارسية، الهندية والصينية؛ وأصبح جريان أحكام الإسلام في هذه الأقاليم التي ضُمت إلى حدود دولة الإسلام ما يميزها من غيرها.

تتبدّى أهمية تمايز أقاليم الإسلام (كوحدة سياسية) بالنظر لعظم ما يستهدفه الإسلام من إنشاء عقيدة جديدة (وجهة دينية) وما يترتب عليها من أوضاع وأحوال مغايرة وقواعد شرعية تنظم من جهة ارتباطها مع الأقاليم الأخرى كوحدة سياسية مميزة (الحيز الجغرافي)، وما يترتب من أوضاع قانونية للأقاليم التي تصبح جزءاً من ديار الإسلام أو يجاور بجوار آمن تعاهدي (ثبوت الولاية)، ومن جهة أخرى ينظم علاقة الأفراد التي قد تصبح مجرد وجود فرد في هذا الحيز (الإقليم الجغرافي) شرطاً من شروط اكتساب الانتماء للدولة المسلمة دون اعتبار للجنس أو اللون أو حتى الدين على إسناد

(★) أستاذ القانون المدني المشارك- جامعة النيلين- عميد كلية القانون السابق.

(١) سورة الشورى الآية : ٨ .

ما يراه البعض أن الدولة الإسلامية دولة شعبية بالإقامة والمواطنة (المدينة المنورة نموذج)، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١) ، على نحو يؤكد أنّ الجماعة المسلمة تقبل أن يتعايش معها أفراد وجماعات غير مسلمة.

أهداف البحث:

اهتم الفقهاء المسلمون بدراسة الأقاليم (دار الإسلام) في كتاباتهم، وكان أغلب أغراضهم تبيان الأحكام (الوضع القانوني) داخل هذه الديار أو علاقة هذه الديار مع غيرها.

أمّا إضافة البحث المرجوة فتتمثل في الآتي:

[١] إظهار دلالات الإقليم كوحدة سياسية في آيات القرآن الكريم في إطار الأصل الذي جاء به القرآن الكريم (إنشاء أمة وإقامة دولة).

[٢] تجلية السمة التأصيلية لمصطلح الإقليم ودلالته المختلفة في مقاربة ما هو ثابت في الفقه الدستوري والسياسي، أي إيجاد علاقة بينها وبين المسميات المعاصرة.

[٣] إبراز الوجهة الدينية لدلالات الإقليم في آيات القرآن، إذ دونها لا يتحقق الأمن والاستقرار للإقليم.

[٤] إثارة قضايا فقهية حول أصول دلالات مصطلح الإقليم قد يثير بواطن للمحاورة والنقاش العلمي حول مدى توافر الإسناد الشرعي (تأصيل) للتطبيق المعاش في البلاد محاولة في توفير أداة مناسبة من مصدر لا يأتيه الباطل (القرآن الكريم) للمهتمين فيما

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٧٢.

يواجه الأمة السودانية المسلمة في هذا الظرف التاريخي للبلاد كنموذج لدولة مسلمة في وقتنا الحاضر من دعاوى ترتكز على كل أبعاد هذه المصطلحات بمفهوم فقه القانون الدولي وما يناظرها في دلالات القرآن كأهمية حدود الدولة ومدى صحة الإقرار والعمل بالواقع فيما قد يأتي من احتمال انشطار جنوب السودان عن الشمال كأحد خيارات اتفاقية السلام ودستور السودان الانتقالي لسنة ٢٠٠٥م، وغيرها من المسائل المرتبطة بالإقليم وبالحدود عموماً.

منهج البحث:

[١] يميل البحث في تناول هذه المصطلحات الدالة للإقليم في آيات القرآن بمفهوم المكان الجغرافي دون غيره بقدر قوة الصلة بالمكان كوحدة جغرافية دون الوقوف كثيراً في تفاصيل الموضوع من المنظور الفقهي القانوني والسياسي أو حتى اللغوي واختلافات استعماله.

[٢] عمد البحث الاعتماد على كتب التفسير في تتبع دلالات الإقليم كمصلح جغرافي ابتغاء الأصالة ورجاء الإضافة مع استعانة لا تخفى بجهود فقهائنا ممن لهم الريادة والسبق، من أجل تقريب المسائل، وعلى الله التكلان في البدء والختم.

تقسيم البحث:

على ضوء ما سبق تم تقسيم البحث إلى مطلبين على نحو ما يلي:

المطلب الأول: دلالات الإقليم وأهميته السياسية من خلال آيات القرآن الكريم.

المطلب الثاني: دعائم بقاء وتقوية الإقليم.

المطلب الأول

دلالات الإقليم وأهميته السياسية من خلال آيات القرآن الكريم

أولاً: دلالات الإقليم:

[١] الدلالة العامة للإقليم:

جاءت الدلالات في معانٍ مختلفة: الأرض، القرية، الاتجاه، الجانب، الناحية، البلدة، والدار، وإن اختلفت المعاني المباشرة لهذه الألفاظ باشتراكها جميعاً في الإشارة لموقع جغرافي، إلا أن كل لفظ قد يظهر جانباً معيّناً من جوانب معاني الإقليم كمكان على النحو الآتي:

(أ) البلد:

ألصق بالأرض المحددة كوحدة سياسية بالمصلح الحديث، واتخذه بلداً أي مكاناً للاستقرار حينئذ يقترب من إقليم معين أي دولة معينة.

(ب) الأرض:

دلالة الأرض دلالة لغوية كإقليم الدولة وإقرار في نفس الوقت بوجود أقاليم دول أخرى، ولعل ما جاء في أصول القانون الدولي والعلاقات الدولية للإمام الشيباني(١) في مؤلفه "السير الكبير"(٢) وهو من أوائل الكتب في فقه القانون الدولي لدى المسلمين يشير إلى ذلك ويوضّح معنى الآية: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (٣) ، أي السير في

---

(١)هو محمد بن الحسن الشيباني، من علماء فارس، توفي سنة ١٨٠هـ، صاحب أبي حنيفة إمام أهل الرأي، ولد بواسوا ونشأ بالكوفة، تتلمذ على أبي حنيفة والثوري ومالك بن أنس، روى عنه الشافعي، ألف كتاب السير الكبير، أنظر الأنساب للمعاني (٤٨٣/٣)

(٢) - د.أحمد أبو الوفاء، كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي والعلاقات الدولية في شريعة الإسلام، دار النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م، ص١١ وما بعدها.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٧.

وحدات سياسية (دول) مختلفة، وأن ما قرره الإمام الشيباني يتفق مع الواقع العملي؛ ذلك أن أي إقليم يعد خاضعاً لسيادة أخرى.

ومن معاني الأرض ما جاء في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾(١).أي جعلها مهاداً وقراراً تستقرون عليها(٢).

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴾ (٣)، لا تفسدوا في الأرض يعني ذلك الفساد في الأرض بالكفر والعمل بالمعصية(٤).

"الأرض" هنا المدينة في أول العهد بالهجرة، وكذا الهجرة إلى الحبشة والهجرة عموماً إحدى الاتجاهات المتكررة في البحث عن مكان وقاعدة حرة؛ أي بالمفهوم الحديث حرية الدولة السياسية داخل حدودها السياسية بأن تمنح الأمان واللجوء للغير(٥)، والخطاب هنا لأهل قريش إذ لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الفساد بل تجاوزوه إلى التبجح والتبرير(٦) ﴿ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴾ ، بل التطاول والتعالي على عامة الشعب ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾ (٧).

[٢] دلالة الإقليم غير المباشرة كوحدة سياسية:

(أ) ذكر بلدة باسمها:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢.

(٢) محمد على الصابوني، صفوة التفاسير، المجلد الأول، ط٩ ، دار الصابوني، ص٤١. والطبري: (٢٨٨/١)، مؤسسة الرسالة،ط١، ١٤٢٠هـ.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١١.

(٤) إسماعيل بن عمر بن ضوء بن درع الشمس، أبو الفداء عماد الدين ابن كثير، تفسير ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، طبعة جديدة، ج١، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ص٩٠.

(٥) سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد الأول، الأجزاء ١-٤، دار الشروق، ص٢٩.

(٦) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص٤٤.

(٧) سورة البقرة الآية : ١٢.

قال تعالى لبني إسرائيل ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ (١)

﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا ﴾ قال جرير: " وقع في قراءة ابن كعب وابن مسعود ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا ﴾ من غير المعرف، ثم روي عن أبي العالية والربيع وابن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون"(٢).

وجاء أيضاً ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا ﴾ أي أنزلوا بلاد مصر أو مصراً من الأمصار أي مدينة من المدن(٣).

"ذكر مرادف" مدينة، قرية، أو بلاد..

(ب) "قرية"

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ (٤). هذه القرية بيت المقدس(٥).

واضح أن "القرية" تطلق على الإقليم، لكن في مدلولها الجغرافي وليست كوحدة سياسية ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴾ (٦).

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١).

---

(١) سورة البقرة، الآية:٦١ .

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص١٥٠. تفسير القرطبي (١٢٥/٢) مطبعة الرسالة، ٢٠٠٠م.

(٣) أحمد على الإمام، مفاتح فهم القرآن، ص٩. وكذا ابن كثير، ج١، ص١٥١. كذلك جاء في الصابوني صفوة التفسير، ص٦١ هذا المعنى (أدخلوا مصراً من الأمصار وبلداً من البلدان أياً كان لتجدوا فيه مثل هذه الأشياء). وجاء كذلك في ظلال القرآن، ص٧٤: (إن ما يطلبون هين زهيد لا يستحق الدعاء فهو موفور في أي مصر من الأمصار فاهبطوا أي مدينة فإنكم واجدوه فيه)، أو بمعنى (عودوا إذن إلى مصر التي خرجتم منها).

(٤) سورة البقرة الآية : ٥٨.

(٥) أحمد على الإمام، مفاتح فهم القرآن، مرجع سابق، ص٩.

(٦) سورة الأنعام الآية: ١٣١.

"القرية" هنا القوم والتسمية هكذا إيذاناً بأن الرسالات كانت في قرى الحضر ولم تكن في محلات البدو.

ذكر قرى لم تؤمن إنما آمنت قِلّة فكانت الصفة الغالبة هي صفة عدم الإيمان إلا قرية واحدة(٢). السؤال هل كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكت وهي ثابتة عن الكفر وأخلصت الإيمان عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها في ذلك الوقت؟ قال قتادة: روي أن يونس أنذرهم بالعذاب ثم خرج من بين أظهرهم(٣) (أي من حدود القرية أو الإقليم)، وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ ﴾(٤)، والقرية هنا هي مكة(٥)، تشير القرية هنا إلى وجود كيانات وحدات سياسية (أقاليم) والإقرار بها قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ﴾(٦).

هي قرية "سدوم" عظمى قوم لوط، كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط(٧).

﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴾(٨).

أي لو أردنا لخففنا عنك أعباء النبوة فبعثنا في كل أهل قرية نبياً ينذرهم ولكن خصصناك بالبعثة إلى جميع أهل الأرض إجلالاً لله.

---

(١) سورة يونس الآية : ٩٨.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص١٨٢١.
(٣) الصابوني، مرجع سابق، ص٩٨.
(٤) سورة (النحل الآية: ١١٢.
(٥) ابن جرير الطبري (٣١٠/١٧)، ابن كثير (٦٠٧/٤)، البغوي في التفسير (٤٨/٥)، السعدي (٤٥١/١).
(٦) سورة الفرقان الآية:٤٠.
(٧) الصابوني، مرجع سابق، ص٣٦٣. تفسير ابن جرير الطبري (٢٧٢/١٩)، ابن كثير (١١٢/٦).
(٨) سورة الفرقان الآية: ٥١.

وبمعنى مباشر قد تشير "القرية" حدود جغرافية وسياسية منفصلة، ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ (١).

يعني "مكة" تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تعذيبهم رسول الله ﷺ وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء فإذا كان الله عز وجل أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء(٢).

وقد تأتي دلالة "القرية" أكثر مباشرة على بلدة معينة بحدود سياسية محددة ومنفصلة عن غيرها قال تعالى: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٣).

إن عادة الملوك أنهم إذا استولوا على بلدة عنوة وقهراً خربوها أي هذه طريقتهم وعادتهم في كل بلد يدخلونها بالقوة(٤).

قد تشير "القرية" إلى جملة من الأقاليم بصورة مطلقة، قال تعالى: ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٥)

"القرية" هي المدينة الكبيرة أو الحاضرة المركزية، وأهل القرى: من تتقرى بهم القرية، ويقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها والمراد بهم أهل المدينة(٦).

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٣.

(٢) ابن كثير، تفسير بن كثير، ج٧، ص٢٠٢.

(٣) سورة النمل، الآية: ٣٤.

(٤) الصابوني، المجلد٢، ص٤٥.

نفس المعنى "قالت ملكة سبأ: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها لما رأت ميلهم إلى الحرب والقتال، وكان من رأيها الميل إلى الصلح" مفاتح فهم القرآن، ص٣٧٩.

(٥) سورة الأعراف، الآية :٩٨.

(٦) مفاتح فهم القرآن، مرجع سابق، ص١٦٣.

تطلق القرى إشارة إلى البلاد، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (١).

دلالة الآية ليس لحادثة معيّنة في قرية معينة، إنّما تكشف عن سُنّة من السنن (٢).

وقد يذكر لفظ "القرية" للإشارة إلى بلدة معلومة دون ذكر اسمها إذا كانت حدودها معروفة بوجود الحدود الطبيعية كالبحار قال تعالى ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ (٣).

حاضرة البحر: قرية معمورة مأهولة على ساحل البحر (٤) لم يذكر اسم القرية التي كانت حاضرة البحر، فهي معروفة للمخاطبين، وهو أسلوب الحكاية عن ماضي بني إسرائيل إلى أسلوب المواجهة لذريتهم التي كانت تواجه الرسول ﷺ في المدينة (٥).

(ج) بلدة:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ (٦)، أي اجعل هذا المكان المراد "مكة المكرمة" بلداً آمناً يكون أهله في أمن واستقرار (٧). وجاء في التفسير أنه مكة المكرمة (٨).

---

(١) سورة الأعراف، الآية :١٠١.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص١٣٣٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية :١٦٣.

(٤) أ.د. أحمد على الإمام، مفاتح فهم القرآن، مرجع سابق، ص١٧١.

(٥) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص ٣٨٣.

(٦) سورة البقرة الآية :١٢٦.

(٧) الصابوني، ج١، ص٢٣٢.

(٨) ابن كثير ج١، ص٢٣٢.

- قال أبو جعفر بن جرير أخبرنا بشار بن بشار أخبرنا عبدالرحمن بن مهدي أخبرنا سفيان بن أبي البرير عن جابر بن عبدالله قال، قال رسول الله ﷺ (إن إبراهيم حرم بيت الله وأمّنه وإني حرمت المدينة ما بين لامتيها فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاها).

نستظهر هنا حرمة الحدود وهي حدود معينة (حرم مكة)، روى البخاري وهذا لفظه، ولمسلم أن رسول الله ﷺ قال: (إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها).

يمكن أن يشار إلى معلم بارز بدلاً عن البلدة المعينة أو الإقليم المعين، قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾⁽¹⁾.

أو إطلاق اسم كناية عن دولة أو إمبراطورية قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) ،المبوأ: مكان الإقامة الآمن(٣)،هنا ذكر اسم البلدة وحصر معناه المحدد للدولة أي الوحدة السياسية كما في قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾(٤).

الإشارة إلى وصف أو معلم بارز لمدلول "البلدة" تكون قبل تشكّل إقليم بلدة دون شعب، لكن لا تقوم بلدة كوحدة سياسية إلا بوجود شعب والعكس ليس صحيحاً، ليتم البلدة في التشكل فيأتوا إليها من كل فج أي من بلاد بعيدة وهم مواطنو بلاد (أقاليم) أخرى، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير، لو قال تعالى (أفئدة الناس) لازدحم عليه الروم واليهود والنصارى والناس كلهم لكن قال: (من الناس)، فاختص به المسلمون)(٥).

---

(١) سورة الإسراء الآية :١.

(٢) سورة يونس الآية: ٨٧.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص ١٨١٦.

(٤) سورة إبراهيم الآية: ٣٧.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج١، مرجع سابق، ص٢٤٣.

"البلدة" قد تشير إلى أقاليم دولة متعددة الأقاليم بوحدات سياسية منفصلة ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ (١)فمهما نقلوا أو تحركوا وملكوا للأقاليم (أي بلاد مختلفة) فهم للهلاك، فهي قصة قديمة من عهد نوح وصراع وتدافع نجد مثيلاتها في كل زمان.

(د) الأرض:

يُشار للأرض للدلالة على إقليم معيّن أو بلدة معيّنة، قال تعالى:﴿ فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ﴾ (٢).

وقال تعالى:﴿ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴾ (٣). والأرض في هذه الآية هي مصر حيث أراد فرعون أن يخرج موسى وقومه من أرض مصر(٤).

ويتسع معنى "الأرض" لمدلول الكون وقد يضيق للإشارة إلى بلدةٍ معينة، قال تعالى:﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ (٥)

يقول تعالى ممتناً على أهمية الأرض (الأقاليم) على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قراراً وسخَّر لهم منافعها من مكاسب وأسباب الكسب(٦)، أي جعل فيها سكناها وزرعها والتصرُّف في المعايش وسائر ما تكون به الحياة(٧).

ومن الإشارات الواسعة لمعاني الأرض ما جاء في قوله تعالى:﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (٨)

---

(١) سورة غافر الآية: ٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية :١٠٣.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٠٤.
(٤) الصابوني، المجلد الثالث، مرجع سابق، ص١٧٨-١٧٩.
(٥) سورة الأعراف، ١٠.
(٦) ابن كثير، تفسير بن كثير، ج٣، ص٢٤٠.
(٧) الصابوني، مرجع سابق، ص ٤٣٧.
(٨) سورة يونس الآية ٩٩.

جاء في التفسير(١)، يقول تعالى:﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ ﴾ ،يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾(٢).

و"الأرض" تشير كما قلنا إلى بلدة معينة في سياق الدلالة العامة كبلاد في قوله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾(٣).

وتضيق أكثر فتشير إلى دولة كوحدة سياسية، أي إشارةً إلى موطنٍ في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٤)

﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يقصد بها أرض مكة(٥)، إذ أواهم الله في مأوىً يتحصَّنون فيه من أعدائهم، وهو المدينة المنورة والاستقرار فيها بالأمن والطمأنينة. كما الإشارة في قضية نبي الله صالح قال تعالى:﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾(٦) ستعمركم أي عمارة في أرض معيّنة.

---

(١) ابن كثير ج٤، ص١١٩.

٢) سورة هود، الآيات ١١٨-١١٩.

(٣)سورة فاطر،الآية: ٩.

(٤) سورة الأنفال،الآية: ٢٦.

(٥) الصابوني، مرجع سابق، ص٥٠٠.

(٦) سورة هود، الآية: ٦١.

والأرض تقترن كذلك بمجموعة وحدات سياسية (أمبراطورية أو دولة كبيرة) أو إشارة إلى دول أخرى غير الدولة المذكورة في قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ (١)

على نحو يمكن التساؤل معه هل الأرض دلالة على رقعة معيّنة (إقليم)؟

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ (٢)

وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ (٤)

وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ (٥).

وجاء في تفسير الصابوني: "ويجعلكم تخلفوني في أرضكم"، أي مصر (٦)

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ (٧).

---

(١) سورة الروم،الآيات ٢-٣.

٢) سورة الأعراف،الآية: ١٢٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية:١٢٨.

(٤) سورة الأعراف، ١٢٩.

(٥) سورة الزخرف، الآية:٥١.

(٦) الصابوني، المجلد الأول، مرجع سابق، ص٤٦٥.

(٧) سورة الأعراف، الآية:١٣٧.

أي وأورثنا بني إسرائيل الذين كانوا يُستذلون بالخدمة أرض الشام ومكنّاهم جميع جهاتها ونواحيها⁽١⁾. والاستخلاف للمستضعفين كان بعد حادث إغراق فرعون وبعد وفاة موسى عليه السلام، وبعد التيه أربعين سنة في منطقة أخرى أي لم يكن في مصر إذ كانت هنالك بلاد أخرى وبحدود منفصلة في الشام⁽٢⁾.

تتأكد الإشارة مرة أخرى في الآية التي تليها بوجود أقاليم جغرافية ومناطق أخرى في قوله تعالى: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾ ⁽٣⁾

جاء في التفسير وجاوزنا بحر القلزم عند خليج السويس⁽٤⁾، وتجاوز البحر والوصول إلى منطقة أخرى تجاوره بلدة أخرى بعد أن مكث موسى ثلاث عشرة سنة في مصر، وهذه البلدة بها امة أخرى بعقيدة خاصة (عبادة الأصنام)⁽٥⁾.

وهذه الدلالة أي دلالة الأرض لإقليم معين ظاهرة ومسندة في قصة سيدنا يوسف قال تعلى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ ⁽٦⁾.

وصول يوسف لإقليم مصر وبيعه بيع الرقيق في دولة أخرى ومن ثم التمكين في هذه الدولة (أرض مصر) والذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير وقوله تعالى: ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ يعني بلاد مصر⁽٧⁾.

---

(١) الصابوني، المجلد الأول، ص٤٦٨.

(٢) في ظلال القرآن، ص١٣٦٠.

(٣) سورة الأعراف،الآية: ١٣٨.

(٤) الصابوني، مرجع سابق، ص٤٦٨.

(٥) في ظلال القرآن، ص١٣٦٦.

(٦) سورة يوسف الآية: ٢١.

(٧) ابن كثير، ج٤، ص١٦٥.

[٣] دلالات الأقاليم المباشرة كوحدة سياسية (الدولة):

يشير لفظ "الدولة" إلى أكثر من معنى، فالدولة العقبة في المال والحرب(١)، وكل تصريفات الكلمة حول حركة التعاقب ودورته، أي إنه يعقب هذا غيره فيها(٢).

وقيل "الدولة" بضم الدال في المال: الفئ دولة بينهم أي يتبادلونه، والجمع دول ودولات، قال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾(٣).

تطورت الكلمة "الدُّولة" بالضم وهي تشير للملك إذْ فيها تتعاقب الحكم كسنة الحياة في التعاقب وتبدُّل الدهر، وذلك ماعبّر عنه ابن خلدون في مقدمته قال (أي أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر وإنما هو اختلاف مع الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك في الآفاق والأقطار والأزمنة والدولة سنة الله التي خلت في عباده)(٤).

إذا وقفنا في لفظي الآفاق والأقطار فهما يشيران إلى المكان أي "الإقليم" كعنصر مكمل لعنصر الحال (العينية مقابل الأحوال)، ولعل ورود لفظ "الدولة" في القرآن في موضعين فقط في سورة آل عمران، الآية (١٤٠) في قوله تعالى: ﴿ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ

---

(١) د.حسن الترابي، المصطلحات السياسية في الإسلام، دار الساقي، (بدون بيانات نشر)، ص٣٢.

(٢) طالما كان تعريف لغوي الأجدى الرجوع لمعلم اللغة لأن هذا الأصل سائق، احمد الماوردي، الدولة باعتبارها شخص من أشخاص القانون الدولي العام، رسالة ماجستير، كلية القانون،جامعة النيلين، ١٤٠٥هـ-٢٠٠٤م، ص١٥ ومابعدها.

(٣) سورة الحشر،الآية: ٧.

(٤) يرى البعض أن العباسيين أول من استعمل تعبير "دولة" وهو يعني عندهم "العهد الجديد" وكانوا يريدون بذلك إبراز غيرهم في العهد الأموي أي تميز الحال.
د. محمد طلعت الغنيمي، قانون السلام في الإسلام، دراسة مقارنة، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٩م، ص٣٢٧-٣٢٨.

قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ والآية (٧) من سورة الحشر ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ ﴾ في مقابل ألفاظ عديدة دالة للحكم، تناسب طبيعة استقرار المكان كإقليم وتأتي للإشارة للأرض بحدود تمارس عليها سيادة محددة في مواجهة غيرها من الدول.

تتفاوت الدلالة السياسية لهذه الوحدات السياسية (الدول) بل التسمية نفسها حسب اختلاف شكل الحكم، إذ تصبح الأقاليم إمارة أو ولاية ضمن سلطان ولاية دولة أو ولاية كبيرة أو إمبراطورية عند الاتساع.

وتشير "الدَّولة" بفتح الدال للإقليم في قوله ﷺ (إذا ظلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو)(١). قال تعالى:﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(٢).

يلاحظ خلو إصلاح "الدولة" في كتب الفقه الإسلامي في العصور الإسلامية، إذّ يُستخدم بدلاً عنه اصطلاح "الدار" ليعبر عن ذات دلالة الدولة بمفهومها المعروف في القانون الدولي المعاصر(٣)، إذ يشير "الدار" إلى الإقليم أو البلدة بمعنى الموطن المحدد مكاناً لاستقرار وإقامة الفرد(٤)، وبذات تعريف التشريعات الفقهية للموطن(٥)، يعرف "الموطن" في الاصطلاح الفقهي بأنه (الموضع أو البلد أو الإقليم أو المنطقة التي تسكن

---

(١) رواه الطبراني عن جابر بن عبدالله، كشف الحق ومزيل الإلتباس عما اشتهر من الأحاديث عن ألسنة الناس، بيروت، دار الكتب العلمية، ج١، ص١٠٣.

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٣٥.

(٣) د.صلاح الدين جمال الدين، الضوابط الشخصية للاختصاص القضائي الدولي، دراسة في إطار أحكام الشريعة الإسلامية، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، ٢٠٠٤، ص١٣.

(٤) لسان العرب، لابن منظور، المجلد الرابع، ص٢٩٨.

(٥) يعرف قانون المعاملات المدنية السوداني لسنة ١٩٨٤ الموطن في المادة (١١٢٢ بأنه (الموطن هو المكان الذي يقيم فيه الشخص عادة) وفي المقابل اعتبر القانون الشخص بلا موطن إذا لم يكن له مكان يقيم فيه عادة وذلك بالنص في الفقرة (٢) من نفس المادة بأنه (يعتبر الشخص بلا موطن إذا لم يكن له مكان يقيم فيه عادة).

فيها مجموعة من الناس يعيشون تحت قيادة سلطة معينة)(١)، هذه الإشارة والدلالة المكانية ملازمة ومصرّحة لفظاً لأهمية المكان حتى في مواقع وصف أحوال الناس ومصائرهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٢).

تشير الآية الكريمة بأن الرسول واثق مما هو عليه بالحق الذي معه وواثق من منهجه وطريقه (الحال)، قانوناً وقاعدة لا تختلف أبداً في أي مكان وحال وزمان قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٣)، على نحو يؤكد هذا الرباط بين الحال والمكان وإذ بهما يكتمل العمار داراً للطمأنينة(٤)، قال تعالى: ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٥).

وذلك في سياق الاستقرار في إقليم محدد وضرورة هذا التحديد ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (٦) نزلت الآية في أصحاب الرسول ﷺ(٧).

وقد تأتي الإشارة إشارة وإن كانت مباشرة إلا أنها ضيقة، غير الإشارة العامة لإقليم بلدة معينة على نحو يقرّب الدلالة إلى دلالة الدولة بمعناه المعاصر، قال تعالى:

---

(١) د.إسماعيل لطفي قطاني، اختلاف الدارين وأثره في أحكام المناكحات والمعاملات، دار السلام للطباعة، طبعة أولى، سنة ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

(٢) سورة الأنعام، الآية:١٣٥.

(٣) في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص١٢١١.

(٤) ابن كثير، ج٣، ص٢٠٨.

(٥) سورة الأنعام، الآية : ١٢٧.

(٦) سورة الحج الآية : ٤١.

(٧) ابن كثير، ج٥، ص٢٦٤، قال ابي ابن حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو الربيع الزهراني حدثنا حماد بن زياد عن أيوب وهشام عن محمد قال: (قال عثمان بن عفان، فينا نزلت ((الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ) فأُخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا ربنا الله، ثم مُكّنّا في الأرض فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر ولله عاقبة الأمور فهي لي ولأصحابي).

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾(١). أي أخرجوا من مكة أي كفار قريش لبدر عُتوّاً وتكبراً(٢)

وقد يدخل تحت سلطان وإمرة الإقليم الواحد عدد من الأقاليم،

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴾(٤).

الإشارة هنا لوجود إقليم يمثل المركز (مركز القرار) بجانب، إذ جاء في التفسير أرجه وأخاه، أخره وأخاه حتى تجتمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحّار عليم(٥)

ذات الإشارة أي الإشارة إلى المركز (المدينة) في سورة يوسف قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(٦).

المدينة(٧) هنا مركز الحكم مقر لكبير وزراء مصر، وعلى معنى قريب يشير لفظ "الدولة" عند اليونانيون دولة المدينة حيث كان اليونانيون يعيشون حول مدينة أثينا (مركز السلطة) رغم أن الدولة كانت تقوم على أساس إثني، إذ الفيصل للمواطنة الأصل العائلي(٨).

---

(١) سورة الأنفال،الآية : ٤٧.

(٢) الصابوني، مرجع سابق، ص٥٠٨.

(٣) سورة الحجر،الآية: ٦٧.

(٤) سورة الشعراء الآية : ٣٦.

(٥) مفاتح حكم القرآن، مرجع سابق، ص٣٦٨.

(٦) سورة يوسف الآية : ٣٠.

(٧) الفارابي في أنواع المجتمعات يتحدث عن المدينة وهو يقصد الدولة، وقسّم على ذلك أنواع المجتمعات إلى: مجتمعات فاضلة، مجتمعات غير فاضلة، والأخيرة تنقسم إلى: المدينة (أي الدولة) الجاهلة، المدينة الفاسقة، المدينة المبذلة، المدينة الضالة. زكريا بشير، مرجع سابق، ص٦٩.

(٨) شانق، احمد الماوردي، الدولة باعتبارها شخص من أشخاص القانون الدولي العام، بحث ماجستير، كلية القانون، جامعة النيلين، ١٤٢٥هـ،٢٠٠٤م، ص٣٨.

إلا أن حدود المدينة السياسية كانت هي الضابط لحدود هذه الدولة، وذات الأمر في الجماعة الهيلينية إذ كانت المدينة فيها كياناً سياسياً مشتركاً بجانب كيانات أخرى داخل الجماعة(١).

ثانياً: الإقرار بأهمية الإقليم كوحدة سياسية :

لاشك أن للإقليم أهمية كبيرة باعتباره الحيِّز الجغرافي الذي تقوم عليه الدولة، وتمارس فيه سيادتها وتعيش عليه شعبها(٢)، بل تتكامل وتتكافل مع بقية أقاليم الأرض لتتحقق وتستمر عمارة الكون.

صحيح أن الفكر الإسلامي في الدولة الإسلامية لم يهتم في بداية تطوره بالإقليم كعنصر من عناصر الدولة، بكون الإقليم في نظر الفقهاء الأوائل لا يحده إلا أطراف الأرض التي يكون فيها المسلمون(٣)، بيد أن من الأحداث الفواصل في تاريخ الأمة الإسلامية "الهجرة" إلى المدينة التي تعني انتقالاً من مكان من إقليم إلى آخر(٤).

الجدير بالذكر كما ذكر الدكتور حسن إبراهيم أنه كانت هنالك عدة خيارات لأمة الرسول ﷺ للهجرة إلى أقاليم لها حدود سياسية منفصلة(٥).

---

(١) هاينزخ شنايدر، "التعددية في بناها القانونية وضماناتها السياسية على الصعيد الوطني والدولي"، "عالم واحد للجميع"، أعمال المؤتمر المسيحي الإسلامي الدولي الثاني، فينا، ١٣-١٦ آيار-١٩٩٧م، المسيحية والإسلام في الحوار والتعاون (١٢)، مركز الأبحاث في الحوار المسيحي الإسلامي، لبنان، المكتبة البوليسية، ٢٠٠٠م، ص٢٧٧.

(٢) د.حامد سلطان، عائشة راتب، صلاح الدين عامر، القانون الدولي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٨، ص٣٨٠.

(٣) محمد طلعت الغنيمي، قانون السلام في الإسلام، مرجع سابق، ص٣٢٧-٣٢٨.

(٤) بل قبلها كانت الهجرة إلى الحبشة (دولة منفصلة وإقليم منفصل) لما رأى الرسول ﷺ ما أصاب أصحابه في البلاد قال لهم (لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله منهم خرجاً مما أنتم فيه)، انظر دلائل النبوة للأصبهاني (١٠٣)، تاريخ الطبري (٥٤٦)، تفسير الطبري (٢٤٩/٩)، سيرة بن هشام (٣٥١/١).

د.حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، مكتبة الدراسات العليا، جامعة النيلين، ص١٠٦.

(٥) منها ديار أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين في يثرب ونجران، أو اليمن، وهي مستمرة للفرس والحيرة والشام.

فالهجرة إلى المدينة وإلى الحبشة من الدلائل القوية على وجود مناطق (أقاليم) أخرى لها السيادة، ويجد من الاحترام والإقرار ما يجده الإقليم كحدود سياسية الآن، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١).

تشير الآية إلى إقرار واضح بوجود أقاليم (وحدات سياسية) أخرى خارج الولاية قنّن نصاً في صحيفة المدينة (دستور المدينة) يجعل من رابطة الانتماء للإقليم المحدد (الوطن) انتماءً شخصياً مجرداً دون اعتبار آخر كوحدة العرق بل حتى الدين وبالتالي يصبح هؤلاء من مواطني المدينة المنورة وأقرب صلة ولحمة للمسلمين في الانتماء الإقليمي (الوطن) من المسلمين المقيمين خارج إقليم المدينة ولم يهاجروا ويلحقوا بالمسلمين في إقليم (المدينة).

ونجد إشارة قوية بإقرار وجود أقاليم أخرى وإقرار حدودها السياسية في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (٢).

أرضاً لم تطئوها: هي كل أرض يورِّثها الله تعالى للمسلمين، فقد فتح مكة بالنصر والانتقال السلمي الاختياري وتحقق وعد الله (ويكون الدين كله لله)(٣).

الأرض المقصودة كانت خارج المدينة تخص بني قريظة(١)، وقيل خيبر، وقيل مكة، ورواه ملك عن زيد بن أسلم، وقيل فارس والروم. وقال ابن جرير (يجوز أن يكون الجميع مراد)(٢)

---

(١) سورة (الأنفال،الآية: ٧٢.

(٢) سورة الأحزاب،الآية: ٢٧.

(٣) مفاتح فهم القرآن، مرجع سابق، ص٤٢١.

وقد يبدو ويتأكد الإقرار في حالات اللجوء لأنبياء ورسل الله عليهم السلام في قصص الأنبياء قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ (٤).يذكر الله تعالى نعمه العظام على بني إسرائيل ومننه حيث أنجاهم من عدوهم فرعون(٥)، إذ يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل أن يسري معهم في الليل من أرض مصر بعد النجاة أربعين ليلة إلى الطور(٦)ليتلقى أمور العقيدة والشريعة المنظمة لإقليم دولة بني إسرائيل.

ويتبدى استقلال كل إقليم في اختلاف مصير وأحوال كل واحد من هذه الأقاليم الحاضرة منها والباقية ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ (٧)، اختلاف في المصير لأقاليم هي خارج مدينة الرسول لم تقتحم بعد ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٨) لذا يود المنافقون لو أنهم لم يكونوا من أهل المدينة يوماً من الأيام، ويتمنون أن لو كانوا من أعراب البادية لا يشاركون أهل المدينة في حياة ولا في مصير، ولا يعلمون حتى ما يجرى عن أهلها؛ أي

---

(١) في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص٢٨٤٩.

(٢) ابن كثير، ج٦، ص٢٥٤. أنظر تفسير البغوي (٣٤٥/٦)، دار طيبة للنشر، ط٤، ١٩٩٧.

(٣) سورة طه الآية: ٧٧.

(٤) سورة طه الآية:، ٨٠.

(٥) ابن كثير، ج٥، ص١٨٩.

(٦) الصابوني، المجلد الثاني، ص٢٤٢.

(٧) سورة الأحزاب الآية: ١٤،

(٨) سورة الأحزاب الآية: ٢٠.

ويجهلون ويسألون عنه سؤال الغريب عن الغريب(١)، مبالغة في البعد والانفصال بعيدين في حدود إقليمية منفصلة.

أما الإشارة الثانية من دمار لأقاليم معينة فهي تقف شاهدة على استقلالية هذه الأقاليم وأقوامها بعد قوة وعمران كبقايا عاد في الأحقاف (إقليم)، وبقايا ثمود في الحجر (إقليم) ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ }(٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾(٤). إنه سبحانه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قرية مصلِحة بأسه(٥)

تأتي الإشارة كذلك إلى اختلاف البلاد والأقاليم القريبة منها والبعيدة، قال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾(٦). "فج عميق" أي بعيد، قال مجاهد وعطاء والسدي وقتادة ومقاتل بن حيان والثوري، إذ يقصد الناس الكعبة من سائر الدنيا ومن سائر الجهات والأقطار(٧)، ليشهدوا منافع لهم في الدنيا ويذكروا اسم الله في أيام معلومات (الإقامة)، ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾(٨).

وإشارة في مشهد آخر يوضح اختلاف الأقاليم في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ⑱ فَقَالُوا۟

---

(١) في ظلال القرآن، ص٨٤١.
(٢) سورة هود الآية:١٠٠.
(٣) سورة هود الآية:١٠٢.
(٤) سورة هود، الآية :١١٧.
(٥) ابن كثير، ج٤، ص١٥٥.
(٦) سورة الحج الآية: ٢٧.
(٧) ابن كثير، ج٥، ص٢٥٢.
(٨) سورة الحج، الآية:٣٣.

رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ (١).

"سبأ" كانت آيةً ودليلاً لحالة أمة ووضع إقليم كوحدة سياسية قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ ﴾ (٢)، واسم لقوم كانوا يسكنون جنوب اليمن موقع سد مأرب (إقليم) كبلدة منفصلة بشعب منفصل، وكان العمران متصلاً بينهم وبين القرى المباركة (أقاليم أخرى) مكة في الجزيرة العربية، وبيت المقدس في الشام، فقد كانت سبأ (اليمن) ما تزال عامرة ومتصلة بالقرى المباركة والطريق بينهما مطروق ومأمون(٣)، وقيل كان المسافر يخرج من قرية فيدخل الأخرى قبل دخول الظلام، فكان السفر فيها محدود المسافات مأموناً في السفر متقارب الحدود، وهذا من تتمة ذكر ما أنعم الله به عليهم، إلا أنهم قابلوا النعم بالكفر أي أنهم حين بطروا النعمة وسئموا الراحة طلبوا من الله أن يباعد بينهم وبين قراهم المتصلة ليمشوا المغاور ويتزودوا للأسفار، فجعل الله إجابتهم بتخريب تلك القرى وفرّقهم في البلاد شذر مذر(٤)، على نحو يمكن القول معه لعلها كانت هي نبتة القومية والإقليمية في التاريخ السياسي ببروز فكرة الحدود السياسية في نفوس الناس وفي قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ طلبوا الأسفار البعيدة التي لا تقع إلا في فترات متباعدة على مدار العام(٥).

---

(١) سورة سبأ الآيات: ١٨-١٩.

٢) سورة سبأ الآية: ١٥.

(٣) في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص٢٩٠١.

(٤) الصابوني، المجلد الثاني، ص٥٥١، أشار إلى القرطبي ٢٨٨/٤ وتفسير الكشاف ٤٥٥/٣.

(٥) لا بأس أن نضع ما يحكي قول بعض مواطني إحدى الولايات في معارضتهم لمشروع تشييد طريق معبّد يربط ولايتهم بالمركز بحجة أن الطريق يدثر تراث السفر وأدبياته وعاداته على الطرق الوعرة فما كان للمسئول إلا أن ردّ أنه بإمكانكم السفر بذات الطرق الوعرة إذ إن الطريق المعبّد لا يستغل إلا أمتار قليلة من عرض الصحراء.

أما الإشارة القوية الدالة من قصة سبأ مع نبي الله سليمان هي الإشارة المكانية في قوله تعالى:﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (١).

مملكة سبأ كما ذكرنا تقع في جنوب الجزيرة العربية باليمن تملكهم أمراة(٢)﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾(٣)، وهي كناية عن عظمة ملكها وثرائها وتوافر أسباب الحضارة المادية والقوة والمتاع (دولة ومملكة).

والإشارة هنا إلى إقليم محدد غير خافية إذ التعبير بعبارات المسافة "غير بعيد" وصفاً للبعد(٤)، أي يوشك أن يكون بعيداً.

يتحول الأمر عند المسلمين من مجرد الإقرار إلى اليقين بضرورة التعامل الإنساني في المعاش اقتصاداً وتجارة قال تعالى:﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ① إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾ (٥)، وذلك استجابة لدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾(٦)، ليصبح مركزاً للتجارة إلى اليمن جنوباً والشام شمالاً، بل ينظم رحلتين تجاريتين ضخمتين فرقاناً لحال الاضطراب وعدم الأمن الذي كان عليه الحال في شعاب الجزيرة العربية من غارات وانعدام حالة الأمن والاستقرار والسلام الذي توافر بحرمة البيت ومن ثم نماء للجزيرة العربية أبقى به المسلمون وجود أقاليم أخرى وضرورة إقرار التعامل مع تلك الأقاليم المختلفة بعد ما كانوا يظنون أن أرضهم هي حدود الكون إذ جاء القرآن ديناً لينذر أم القرى ومن حولها كإقليم كامل (وحدة سياسية) حمل تحت

---

(١) سورة النمل الآية: ٢٢.

(٢) قال الحسن البصري: وهي بلقيس بنت شراحبيل ملكة سبأ وهي ملكة عظيمة. ابن كثير، ج٦، ص١١٩.

(٣) النمل ، ٢٣.

(٤) القرب والبعد حقيقتهما أوصاف للمكان، يُستعاران بتشبيه الزمن القصير بالمكان القريب، وشاع ذلك حتى ساوى الحقيقة قال تعالى (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ)(هود، ٨٩) وغير بعيد صفة لاسم زمان أو اسم مكان (الإقليم) محذوف منصوب على الظرفية أي مكث زمن غير بعيد أو في مكان غير بعيد، وكلا المعنيين تقتضي أنه رجع إلى سليمان بعد زمن قليل. انظر: مفاتح فهم القرآن، مرجع سابق، ص٣٧٨.

(٥) سورة قريش الآيات: ١-٢.

(٦) البقرة الآية:١٢٦.

لوائها المسلمون راية الإسلام متعدين هذه الحدود شرقاً وغرباً فتوحات إيمانية قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(١).

في تفسير الآية ﴿ فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ إشارة إلى الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان(٢)، ولعل شدة ارتباط الإقليم وتأثيره على انتشار دعوة الإسلام تظهر بوضوح مما حمل البعض من قادة الإمبراطوريات التي كانت تعاصر نشوء دولة الإسلام كالإمبراطورية البيزنطية (الرومان) – الظن أن أمر الإسلام كله كدعوة جديدة مجرد رغبة للتوسع المكاني أي هي مجرد محاولة إمارة عربية ناشئة لتوسيع رقعتها كما كانت تفعل الإمارات العربية القديمة كإمارة كندة وتدمر(٣).

بل شدة ومدى الاستقلالية أن تصبح هذه الأقاليم ملجأ للآخرين وفي بعض الأحيان أماكن طاردة فراراً منها للنجاة قال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾(٤)

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾(٥).

---

(١) سورة فصلت الآية: ٥٣.

(٢) قال مجاهد والحسن والسدى (من أنفسهم) واقعة بدر وفتح مكة نحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم نصر الله فيها محمد ﷺ وصحبه. ابن كثير، ج٧، ص١٢١. يقول سيد قطب: "إن الأرض عند مولد رسالة الإسلام كانت تتقاسمها إمبراطوريات أربع هي:
الإمبراطورية الرومانية في أوربا وطرف من آسيا وأفريقيا.
الإمبراطورية الفارسية تمد سلطاتها على قسم كبير من آسيا وأفريقيا.
الإمبراطورية الهندية.
الإمبراطورية الصينية.
أنظر في ظلال القرآن، ص٣١٤٢.

(٣) فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، ط٤، القاهرة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص١٨.

(٤) سورة الأنبياء، الآية:١١.

(٥) سورة الأنبياء، الآية:١٢.

الركوض هنا يسارعون بالخروج من القرية ركضاً وعدواً(١)، وما الركض إلا للخروج والفرار من حدود معروفة (إقليم) إذ التدمير والتحطيم يحل على الأمكنة ويشمل ما فيها ومن فيها أما العمار والإنشاء يوقع بالفعل أي فعل القوم إذ ينشأ ويعاد الترميم والبناء للقرى بفعلهم.

وأشارت قصة سيدنا موسى بوضوح إلى عملية الفرار إلى إقليم آخر له سلطان وسيادة منفصلة ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾(٢).

إذ جاء في التفسير أن موسى عليه السلام لبث في أهل مدين فاراً من فِرعون ومِلّته(٣) (بحق اللجوء) بعيداً عن وطنه وأهله على امتحان بالبعد عن الوطن. إذاً كان اللجوء إلى إقليم له سيادة منفصلة كما قلنا، ومكث (إقامة) سنين عديدة عند شعيب في أرض مدين(٤)، بحثاً عن الأمن إذ جاء إليها خائفاً يترقب (لا تخف نجوت من القوم الظالمين)، ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾(٦).

الأمر الذي يؤكد أن كل إقليم (بلدة) له سلطان وقد يكون قومه قوماً آخرين ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(٧).

---

(١) في ظلال القرآن، ص٢٣٧٠.
(٢) سورة طه الآية:٤٠.
(٣) ابن كثير، ج٥، ص١٨٢.
(٤) الصابوني، مرجع سابق، ص٢٢٤.
نفس المعنى في ظلال القرآن، ص٣٣٧.
(٥) سورة القصص الآية: ٢٢.
(٦) سورة القصص الآية: ٢٣.
(٧) سورة الشعراء الآية: ٢١.

المطلب الثاني

دعائم بقاء وتقوية الإقليم(مطلوب إيماني)

لبقاء الإقليم كوحدة سياسية في الإسلام يلزمه دعائم لكي لا يتلاشى أو يضعف. نقصر الحديث على الدعائم الأساسية التي تؤثر في بقاء الإقليم ككيان مادي دون تناول مقومات وجود الدولة كوحدة سياسية بمنظور الفقه السياسي (مبادئ الحكم) التي قطعاً تؤثر بدورها في بقاء الإقليم إذ المقصود هنا التأثير المباشر.

أولاً: ضرورة المدافعة عن الإقليم (حرمة الحدود السياسية):

وجدت أسباب المدافعة في الحياة منذ بدء الخليقة واستقرار البشر في الأرض، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (١) ، أي اهبطوا جميعاً من آدم وزوجه بل إبليس وقبيله ليصارعوا بعضهم بعضاً ويعادوا بعضاً لتدور المعركة بين طبيعتين وخليقتين، وكتب على آدم وذريته يستمتعوا بما في الأرض إلى حين وهذا هو التمكين(٢).

بهذه المدافعة تبرز أقاليم بأكملها وتتلاشى أخرى على وجه الأرض (مسرح الحياة) قال تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣).

"فسيروا في الأرض" فالأرض كلها وحدة كمسرح للحياة أقاليم تضم الأمم تسري عليها قدرة الله عبر الأزمنة هلاكاً حين المخالفة للنواميس والنظم خاصة تلك

---

(١) سورة البقرة الآية: ٣٦.

(٢) في ظلال القران، مرجع سابق، ص١٢٧٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٧.

الموحاة بواسطة الأنبياء حينها يكون الاستئصال(١) على قدر معلوم ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ﴾(٣).

هي سنة الكون وحركة القرون وهي تتقلب في البلاد وتنقب أسباب الحياة(٤)،وقال تعالى: ﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾(٥).

أجل مقسوم يمنحه الله للقرى والأمم على حسب العمل يكون المصير، فإذا آمنت وأحسنت وأصلحت وعدلت، مد الله أجلها حتى تنحرف فتهلك فيتلاشى الإقليم كلياً عبر قرون لا يحسه جيل واحد بل أجيال أو يصابه ضعف وتخلف تحسه الأجيال الحاضرة(٦).

أما قدر الناس في أن يكونوا سبباً لتلاشي الإقليم نابعٌ من التزامهم بالموافقة عن الإقليم (الحدود السياسية) إذ إنَّ أهميَّة الإقليم (التراب) من أهمية الوطن يلزم المقاتلة دونه، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾(٧).

---

(١) الصابوني ، مرجع سابق، ص٢٣٠.

(٢) سورة الحجر الآية: ٤.

(٣) سورة ق الآية:٣٦.

(٤) في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص٣٦٦.

(٥) سورة الحجر الآية: ٥.

(٦) في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص٢١٢٦.

(٧) سورة البقرة، الآية:١٩٠.

فهي أول آية نزلت في القتال حماية لإقليم المسلمين بعد ان أصبح لهم كيان سياسي ونظام ديني مستقل يضم أمة واحدة حينها تصبح المقاتلة واجبة﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾(٢).

صحيح أنَّ هذه الآيات كانت تواجه وضع المسلمين في داخل إقليم المدينة مع مشركي قريش (من خارج حدود المدينة السياسية) أخرجوا المؤمنين من إقليم مكة لكن هو مثال يحتذى للمدافعة عن الأوطان ما دامت الحاجة لها باقية لا تقف إلا بالسلم وعدم العدوان. وتكون المدافعة مع هذه الضرورة بقدر التعدي(٣). (أي التعامل الواقعي) وبشروط نظامية.

يصبح في الأمر تشدد بعدم الاعتداء على قوم بينهم وبين المسلمين عهد، إذ الوفاء واجبٌ حينئذٍ على المسلمين وحتى إن بدت نيةُ للغدر من الآخر فإذا ما أراد المسلمون نقض العهد فعليهم إخطار الآخر أولاً بهذه النية (أي نقض العهد) ولا يحق للمسلمين مباغتة الآخر بنقض العهد ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾(٤).

أما إذا حصل اعتداء من الأعداء فإن الأمر بالقتال قائم وبحرص بل يمتد الحق بإخراج الأعداء من الإقليم ﴿ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ

---

(١) سورة البقرة، الآية:١٩٣.

(٢) سورة التوبة الآية: ١٣.

(٣) الصابوني، مرجع سابق، ص١٢٦.

(٤) سورة الأنفال الآية: ٥٨.

ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

إذا الحكم هو المدافعة دون عدوان، بل تحريضٌ على المعاملة الحسنة مع العدو إذ جاء التحريض مقروناً مع ذكر الديار (الإقليم) ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾.(٢)

أهمية الإقليم تبدو ظاهرة إذ يكون التهديد من الإخراج منه من أهل الطغيان والحظوة في الدنيا، قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٣).

بل يظهر مدى الأهمية الإقليمية (وحدة سياسية للوطن) حيث ساوى القرآن الكريم القتل والإخراج من الوطن، من حيث الشدة على النفس، على النحو الذي أبان من معنى الآية الكريمة؛ أنه لو فرضنا على هؤلاء المنافقين ما فرضنا على من قبلهم من المشقات وشددنا التكليف عليهم فأمرناهم بقتل النفس والخروج من الأوطان(٤)، كما فرض ذلك على بني إسرائيل ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾(٥)، طالباً منهم عدم الارتداد وإلا الخسران.

قال تعالى:﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾(٦)

---

(١) سورة البقرة، الآيات:١٩١- ١٩٢.
(٢) سورة النساء الآية:٦٦.
(٣) سورة المنافقون الآية: ٨.
(٤) الصابوني ، مرجع سابق، ص٢٨٦.
(٥) سورة النساء الآية: ٦٦.
(٦) سورة المائدة الآية: ٢١

الأرض المقدسة يجعل منهم أنبياء(١)، وملوك في ذلك التاريخ وهي الأرض المطهرة مستنكراً قول بعض بني إسرائيل الذين تحاجوا بقوة العدو والامتناع عن المدافعة إذ قالوا في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾(٢)

وذلك خوفاً من قوم البلدة الجبارين(٣)، إلا أنّ الله حثّهم بعدم الارتداد عن مدافعة حدود البلدة (إقليم الدولة) خوف العدو، وتعودوا خاسرين أي العودة إلى البلدة الصغيرة (القرية) قال تعالى:﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾(٤)هنا باب القرية أي حدودها المعلومة(٥).

وقد يتعاظم الجزاء لعدم المدافعة ويؤدي بالحرمان من دخول البلدة لمدة معلومة (نفي) قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾(٦)، لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم الله عليهم بتحريم دخولها مدَّة أربعين سنة(٧)، والتحريم كان لذلك الجيل من اليهود الذي أفسده الذل (بعدم المدافعة) والاستعباد بعد أن كانوا ملوكاً ولكن ذلهم كان نتيجة

---

(١) قال سفيان الثوري عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله (ادخلوا الأرض المقدسة) قال: الطور وما حوله. ابن كثير، ج٢، ص٢٤. اختلف أهل التفسير في الأرض المقدسة فقالت طائفة هي الطور وما حوله وقال آخرون هي الشام، وقال آخرون هي أريحا، قال ابن جرير في تفسيره والحق هي الأرض المقدسة التي لا تخرج عن دمشق وفلسطين وبعض الأردن، انظر تفسير ابن جرير الطبري (١٦٨/١٠) الناشر مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠، تحقيق أحمد شاكر.

- قال البيضاوي "الأرض المقدسة" هي أساس بين المقدس سميت ذلك لأنها كانت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين. الصابوني، مرجع سابق، ص٣٣٥.، أشار إلى البيضاوي، ص١٤٨

(٢) سورة المائدة، ٢٢

(٣) ابن كثير، ج١، ص٤٦. ذكر أن مدينة الجبارين هي أريحيا، وابن جرير الطبري (١٧٢/١٠).

(٤) سورة المائدة الآية: ٢٣.

(٥) مفاتح فهم القرآن، مرجع سابق، ص١١١.

(٦) سورة المائدة الآية:٢٦.

(٧) ابن كثير،ج٢، ص٤٨.

الاستعباد الذي عاشوه في طغيان فرعون في مصر، لهذا حرَّم عليهم الأرض التي كتبت لهم⁽¹⁾.

بل يجئ الإبعاد والطرد كعقابٍ لإفساد الدولة وعدم الانصياع لأوامر القانون (سلطان الدولة)، قال تعالى:﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .⁽²⁾

إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله: الذين يحاربون الله ورسوله بخروجهم على دولة الشريعة وأحكام الشرع ويفسدون في الأرض بقطع الطريق أو نهب الأموال أن يُقتلوا بمن قَتلوا وأن يُصلبوا إذا قتلوا وعصبوا المال وأن ينفوا من بلدهم وأن يحبسوا إذا أخافوا وردعوا الناس فقط⁽³⁾

صحيح جاءت هذه الآيات في سياق بعض الأحكام التشريعية الأساسية في الحياة البشرية لكن هناك ضرورة واضحة إذ يشير الأمر إلى حياة تمتع المسلم داخل الإقليم المسلم⁽⁴⁾ بمفهوم أوسع يتعدى جغرافية المكان (دار الإسلام) لحماية النظام العام وصياغته من الخروج على قوانين هذا الإقليم وبه يبقى الإقليم كياناً آمناً.

بل يتخذ الأفراد هذه الوسيلة تخويفاً وعقاباً للبعض كما جاء في قصص الأنبياء ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ

---

(١) في ظلال القرآن، ص٨٧١.

(٢) سورة المائدة الآية:٣٣.

(٣) مفاتح فهم القرآن، مرجع سابق، ص١١٣.

(٤) يضم العالم في نظر بعض الفقهاء قسمين من الأقاليم في نظر الإسلام وفي اعتبار المسلم لا ثالث لهما: دار الإسلام ودار الحرب: الأول (دار الإسلام) يشمل كل بلد تطبق فيه أركان أهله مسلمين وذميين، أو كانوا يطبقون فيه أحكام الإسلام ويحكمون بشريعة الإسلام أو كانوا مسلمين أو مسلمين وذميين ولكن غلب على بلادهم حربيين غير أن أهل البلد يطبقون أحكام الإسلام ويقضون بينهم حسب شريعة الإسلام، إذن المدار في اعتبار بلداً دار إسلام هو تطبيقه لأحكام الإسلام.

رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾(١) ونسكنكم أي ونمنحكم سكن أرضهم بعد هلاكهم(٢).

يخبر الله تعالى في مواضع كثيرة عمَّا توعَّدت به الأمم الكافرة رسلهم في الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم كما قال قوم شعيب:﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾(٣)

وقال تعالى:﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾(٤)أي ما أجابوا لوطاً إلا أن همُّوا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم (بلادهم) فأخرجه الله تعالى سالماً وأهله عن أرضهم صاغرين مهانين(٥).

والإخبار عن مشركي قريش ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(٦)

وكان من صنعه تعالى: أنَّه سبحانه أظهر رسوله ونصره وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجنداً يقاتلون في سبيل الله تعالى ولم يزل يرقيه تعالى من شيءٍ إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجته ومكن له فيها رغم أنوف أعدائه(٧). إذ كانت رغبة أصحاب الضلال "الجاهلية" ضد أصحاب الإيمان "المسلمين" بأن لا يكون للإسلام كيان مستقل داخل مجتمعهم، إما الذوبان والاندماج في جاهليتهم أو الطّرد من

---

(١) سورة إبراهيم الآيات: ١٣-١٤

(٢) الصابوني، المجلد الثاني، ص٩٣.

(٣) سورة الأعراف الآية:٨٨.

(٤) سورة النمل الآية:٥٦.

(٥) ابن كثير، ج٣، ص٢٧٢.

(٦) سورة الإسراء الآية:٧٦.

(٧) ابن كثير، ج٤، ص٢٢٦.

هذا الكيان الجغرافي المحدد(١)، إلا أنَّ الأمر يستقر للمسلمين بالتدرج كفئة مستقلة داخل الكيان غير المسلم ومن ثَمَّ الإنفراد بنعمة الله بالإقليم كله بالنصر والتمكين.

نجمل القول إنّ المدافعة عن الإقليم (الوطن) من الضرورة حال الاعتداء أو مدافعة عن عدم الإخراج إن كان إخراجاً مادياً بالطرد أو النفي أو حرماناً من أحكام الشرع ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(٢).

الإخراج هنا بغير سبب، ظلماً وعدواناً لمحمد ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة(٣)، بل منعِهم من التعبد وصدهم عن المسجد الحرام ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾(٤)

تكبر هذه الضرورة في السياق السياسي أي النظر للإقليم كحدودٍ لدولة أي حماية كيان الدولة بالإيمان حماية للسلطان (الحكم)، إذ بها تحمى بيضة الإيمان، وباسم الحكم وحمايته يتم القتال والطرد والإبعاد كما في قصص الأنبياء، كما في قصة سيدنا موسى ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾(٥).

وفي آية أخرى ﴿ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴾(٦).

---

(١) في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٠٩٢.

(٢) سورة الحج الآية: ٤٠.

(٣) الصابوني، المجلد الثاني، ص٢٩٢.
قال العوض عن ابن عباس نزلت في محمد وأصحابه حيث أخرجوا من مكة وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف كابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير أن زيد بن أسلم ومقاتل ابن حيان وقتادة وغيرهم بأن هذه أول آية نزلت في الجهاد. ابن كثير، ج٥، ص٢٦٢

(٤) سورة الفتح الآية:٢٥.

(٥) سورة طه الآية: ٦٣.

(٦) سورة الشعراء الآية:٣٥.

الأرض "أرض مصر"، وكان استبعاد بني إسرائيل بسبب نتيجة استثارة فرعون ووزرائه وعلية قومه إذن إجراء سياسي لحماية كيان سياسي (حدود سياسية للإقليم).

ثانياً: واجبات الفرد لبقاء الإقليم

هي أمور متعلقة بأفراد المجتمع في دورهم في التأثير على الإقليم الذي يضمهم وهي كثيرة نشير إلى أهمها التي تمثل جوامع للواجبات في آيات القرآن منها:

ما جاء في قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾(١)

إنّ تغيّر أحوال الناس إلى السّوء يكون من أنفسهم الأمر الذي يؤدي إلى هد بنيان الإقليم، ﴿ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴾(٢) إذ بعد العيش في اطمئنان أمناً ورزقاً سهلاً يكون الاضطراب وتلاشي الإقليم، ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾(٣).

أي إنَّ تمسك القرية بأسباب الإيمان استوجب لها استتباب الأمن والرزق، فلمَّا كفرت ألبسهم لباس الجوع والخوف، إذ يهلك القرى بظلم أهلها ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾(٥).

---

(١) سورة الرعد الآية: ١١.
(٢) سورة الأنبياء الآية: ١١.
(٣) سورة النحل الآية: ١١٢.
(٤) سورة هود الآية: ١١٧.
(٥) سورة القصص الآية: ٥٩.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾(١).

هذا الهلاك بهذه الحتمية ليس على نحو عشوائي إنما بوعي وإدراك قائم على كسب وأعمال الناس جلهم أو قلة ذو تأثير على بقية الناس، ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾(٣).

وبتوازن عجيب نجد فرص بقاء الإقليم بل ازدهاره (الدول والحضارات) بالإيمان والعمل الصالح والقيام بجميع التكاليف حتى تلك التي تكون ذات مشقة على النفس كالجهاد بالنفس وكل ما يتطلبه حماية الإقليم إذ دعى داعي الجهاد ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾(٤).

في إشارة للمتخلفين من رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب(٥)، وذلك ببيان محددٍ للتكاليف وهي البيعة وقسم الولاء (للوطن والدين)، ومن ثم التحضيض العميق على النفرة للجهاد ببيان كذلك لحدود التكليف من حيث المكلفين (النفير العام).

وقد تتغير حدودُ التكليف في حالة اتساع الرقعة (الحدود السياسية) لدولة المدينة ويصبح حالئذٍ في الإمكان أن ينفر البعض (تغيُّر خاص) ويبقى البعض للقيام

---

(١) سورة القصص الآية: ٥٨.
(٢) سورة الإسراء الآية:١٦.
(٣) سورة الزخرف الآية:٢٣.
(٤) سورة التوبة الآية: ١٢٠.
(٥) ابن كثير، ص٨١.

بحاجيات المجتمع كلّه من توفير الأقوات وعمارة الكون⁽¹⁾، وعمارة القلب بالدعوة ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾⁽²⁾.

مما يحرض الأفراد والجماعات العمل على قمع الظلم ومدافعة العدوان -على النحو الذي ذكر من قبل- بل التوسُّع والتمدد استبدالاً للأمم الظالمة في أقاليمها ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾⁽³⁾.

وقوله تعالى:﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾⁽⁴⁾.

ثالثاً: إيفاء ضرورات الواقع في التعامل مع الغير

تبدأ المسألة باعتراف الدولة الإسلامية بغيرها من الدول بصورة توضح ليس مجرّد إظهارٍ للواقع السياسي في فقه القانون الدولي وقواعده (إجراءً كاشفاً) على نحو تراه بعض مدارس الفقه الإسلامي ممن ينادون بدولة الخلافة الإسلامية؛ إنما اعترافاً بالوحدات السياسية للدول حتى للدول الإسلامية، إذ كانت هناك دويلات إسلامية بجانب الدولة المركزية في الشرق وعلى مقربة منها دول إسلامية كالدولة الفاطمية ودول في المغرب العربي، وبالتالي يكون الاعتراف ليس كاشفاً فقط بل منشئاً⁽⁵⁾. لكن بفهم رباني أعمق يتجاوز مناشدات المواثيق والمعاهدات الدولية في الإقرار الصادق بالحدود

---

(1) في ظلال القرآن، ص١٧١٥.
(2) سورة التوبة الآية:١٢٢.
(3) سورة الأنبياء الآية: ١٠٥.
(4) سورة الأعراف الآية: ١٣٧.
(5) د. محمد طلعت، غنيمي، قانون الإسلام في الإسلام، مرجع سابق، ص٣٩٢.

السياسية لهذه الدول والتعايش معها ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾(١).

وإعمال قواعد النظام الدولي من إقرار بوجود نظام الأمم المتحدة والاعتراف بوحداتها المكونة لها (الدول) والاعتراف المتبادل والمعاملة بالمثل المحكوم بالعدل والسواء بما يحقق السلام والأمن الدوليين قال تعالى:﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(٢)، وذلك في حدود ما أمر الله به بمرونة سماحة الإسلام من جهة ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾(٣)، أي لا يستوي فعل الحسنة مع فعل السيئة(٤)، بل بينهما فرق عظيم في الجزاء وحسن العاقبة، ومن جهة أخرى حزم ومفاصلة في قطع المعاملة في حالة عدم الاستقامة والعدوان من الغير ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾(٥).

ولابد لنا من الإشارة بأنَّ قيود ما أمر الله قد يكون سبباً شرعياً كافياً للخروج من نصوص التعاهد خاصة إذا لم تكن قاطعة على نحو ما حصل في رد المؤمنات إلى المدينة في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٦).

---

(١) سورة الممتحنة الآية:٨.

(٢) سورة التوبة الآية: ٧.

(٣) سورة فصلت الآية:٣٤.

(٤) قال ابن عباس: (ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك). القرطبي١٥/٣٦١ أشار إليه الصابوني، مرجع سابق، المجلد ٣، ص١٢٣.

- في ظلال القرآن، ص٣١٢١. جاء (فإن الحسنة لا يستوي أثرها كما تستوي قيمتها مع السيئة والصبر والتسامح والاستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر)

(٥) سورة الممتحنة الآية:١.

(٦) سورة الممتحنة الآية: ١٢.

إذ ورد في سبب نزول هذه الأحكام أنه كان بعد صلح الحديبية الذي فيه: (ألا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا)، ولما كان ﷺ والمسلمون معه بأسفل الحديبية جاءته نساء مؤمنات يطلبن الهجرة والانضمام إلى دار الإسلام في المدينة، وجاءت قريش تطلب ردهن تنفيذاً للمعاهدة ويظهر أن النص لم يكن قاطعاً في شأن النساء فنزلت هاتان الآيتان تمنعان رد المهاجرات المؤمنات إلى الكفار.

وقد تبلغ درجة التعامل الإسلامي مدىً بعيداً ومرونةً فائقةً إلى إبرام أحلاف مع إقليم عدو ولكن في حدود الشرع؛ وذلك ما نستنطقه من تفسير الآية ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾(١)، إشارة مقصودة إلى إقليم على قول من رجح في التفسير بأن هنالك صلة بين هذا البيان وبين تحويل القبلة.

والمنقول من العبودية في جميع صورها الإقليمية أو شتى القوى(٢)، (وشتى التنوع) يأتي في قمتها ما جاء في بعض التفاسير بأن البر الصحيح هو الإيمان بالله واليومالآخر(٣)، وبالطبع هذا لا يضعف الإشارة إلى الإقليم إذ إنَّ القبلة تعتبر دلالة لتحديد اتجاه مكان.

بل لا يفتر أصحاب الإيمان من دعوة الأقوام الآخرين في أمصار وأقاليم أخرى ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾(٤).

ويعظم الإسلام الإيواء للغير ويأمر بتوفير الأمن لما يلجأ إلى دولة الإسلام إذ تعطيهم الجوار والأمان ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة الآية:١٧٧.

(٢) في ظلال القرآن، ص١٥٨ ومابعدها.

(٣) الصابوني، مرجع سابق، ص١١٧.

(٤) سورة الفرقان الآية: ٣٦.

(٥) سورة التوبة الآية:٦.

هذه هي الواقعية في ضرورة التوازن بين المدافعة عن الإقليم إلى درجة القتال –على النحو الذي فصل– والتعامل المثالي المرن مع الغير إذ المقاتلة نفسها قد تتسع لمعنى المعاملة(١). مرونة منطلقة من طبيعة هذا الدين لا تفصل فيه الشعائر التعبدية عن الشعائر الحياتية (التشريعات التنظيمية) وكليهما في حاجة إلى مكان، والمكان (الإقليم) بدوره يحتاج إلى المدافعة بنوعيها، المدافعة المادية والمدافعة المعنوية إذ الأخيرة تتم بالشعائر التعبدية سنة ماضية مع كل نبي ورسول، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢).

ذات المعنى لأمة الإسلام ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾(٣).

يقول ابن عباس: هم المهاجرون والأنصار والتابعون (فئات المجتمع في المدينة) بإحسان(٤)، والمعنى أنَّ نصر الله والتمكين على الأرض، لأهل الإيمان.

صفوة القول إن الإسلام اهتم بتنظيم كل جوانب الحياة ما يضمن حياة الفرد والجماعة مع تحديد العلاقات النهائية بين الأقاليم المسلمة وغير المسلمة مع تقرير إمكانية إقامة علاقات تعايش بين المعسكرات المختلفة في ظل بقاء الأصل الشرعي المدافعة كلمَّا جدت ظروف﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(٥).

---

(١) في معنى قريب يفهم من حديث ينسب إلى ابن تيمية حيث ربط المعنى مع حديث (أحسنوا القتل) أي الإحسان في المعاملة .برنامج الشريعة والحياة، قناة الجزيرة الإخبارية، مقابلة مع نائب رئيس هيئة علماء المسلمين، ٢٠١٠/٤/١م

(٢) سورة يونس الآية:٨٧.

(٣) سورة الحج الآية:٤١.

(٤) الصابوني، المجلد الثاني، ص٢٩٢.

(٥) سورة الحج الآية:٤٠.

ثالثاً: مراعاة مبادئ الحكم الشرعية :

لا شك أنَّ هذه المبادئ عديدة نشير منها فقط إلى بعض الجوانب المتعلقة بالإقليم كوحدة سياسية في مبادئ مختارة جامعة منها:-

(١) **السلام**(١): لاشك في أنَّ السلام من أهم الدعائم التي يعتمد عليها الأمن، إذ لا تقوم للأمن قائمة في إقليم دولة إلا إذا سادته روح السلام، ومما لا شك فيه أنَّه ليس هنالك دينٌ ولا مذهبٌ دعا إلى السلام كما دعا إليه الإسلام، فالسلام في الأرض كافة هو هدف دعوته؛ لذا نجد أنَّ القرآن الكريم عني كل العناية بقضية السلام فهو يعرض علينا كثيراً من القضايا التي تبرز مكانة السلام وكيف قوبل العدوان والظلم بالسلم من قبل أهل الإيمان عموماً والمسلمين خاصة(٢)، نشير هنا لقصة يأجوج ومأجوج وما تحمل في طياتها من إيثار السلامة عن طريق فصل الحدود عن القوم المجاورين خشية شرهم إذ طلبوا من ذي القرنين أن يقيم بينهم سداً (ترسيم الحدود) قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾(٣).

(٢) **ضرورة الإيمان** من قبل الحكام بجعل الإيمان مرجعية لتحقيق السلام الاجتماعي في

---

(١) دار السلام ودار الحرب مصطلحان أطلقهما فقهاء المسلمين للتفريق بين مجتمعين مختلفين يتوافر لأحدهما الأمان بينما الآخر يتهدده المخاطر وعدم الاستقرارلمزيد من التفصيل والوقوف على آراء الفقهاء الباحثين المعاصرين أنظر:

-د.أحمد الجهني، محمد مصطفى، ، وما بعدها، مرجع سابق (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥. ص١١٦

- إحسان الهندي، أحكام الحرب والسلام في دولة الإسلام، دار التميز للطباعة والنشر، دمشق، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

- الشيخ محمد أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١.

(٢) محمد عبدالله السمان، الإسلام والأمن الدولي، دار الحباب العربي، ط١، جمادي الأول ١٣٧١هـ- فبراير ١٩٥٢م، القاهرة، ص٦٨.

(٣) سورة الكهف الآيات:٩٤-٩٥.

كل السياسات والنظم قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾(١).

يذكّر الله تعالى في هذا المقام مجتمعاً من مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له وأنّ إبراهيم الذي كانت مكة عامرة بسببه تبرأ من أهله ممن عبد غير الله وأنه دعا لمكة بالأمن(٢).

(٣) ضرورة التشريع:

يعد سن تشريع يستهدف وضع قواعد السلوك والتعامل مع الغير من لوازم ومكملات تعزيز المنهج القرآني وتعميق في نفوس الناس داخل بلاد وأقاليم المؤمنين قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(٣) .

حث لبني إسرائيل باختيار الأفضل كالأخذ بالعزائم دون الرخص فالعفو أفضل من القصاص والصبر أفضل من الانتصار(٤).

(٤) تقوية الحكم :

يتم تقوية وتشديد الحكم بجملة من المبادئ منها:

- العدل والاستقامة:

قال تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾(٥).

---

(١) سورة إبراهيم الآية: ٣٥.

()) ابن كثير، ج٤، ص٢٤٢.

(٣) سورة الأعراف الآية:١٤٥.

(٤) يقول ابن عباس (أمر موسى أن يأخذها بأشد مما أمر به قومه سترون منازل الفاسقين)، الصابوني، مرجع سابق، ص٤٧٠.

(٥) سورة الشورى الآية:١٥.

قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (١).

تؤكد الآيات أنَّ الاستقامة تتحقق بالتمسك بصراط الله العظيم من الحاكمية بدافعية الإيمان والاعتقاد بأنه لا يصلح من حاد عن الصراط وظلم ،قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٢).

هذا تهديدٌ ووعيدٌ لمن يسير في طريق الظلم مع الظن بأنَّه على هدىً(٣) وتعزية وإقرار للرسل بأنَّهم على الحق.

إذن هو الحكم بين الناس بالعدل ﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ (٤) على منهج الله المستقيم وتعاليمه حملاً للأمانة الكبرى(٥) وإنزالٌ للأمانات الفرعية هدايةً للرعية تعاملاً داخل حدود الدولة وخارجها.

ـ المشورة والمشاركة الفعلية :

كلٌ في أمانته التي أؤتمن عليها إذ يشدد الله تعالى بجعل المشورة قاعدة للحكم والاشتراك فيه سنّة ماضية، قال تعالى: ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴾ (٦).

جاء في قوله تعالى: ﴿ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي ﴾، استشارتهم في أمرها وما نزل لها ليجيبوها رأيهم(٧)،قال تعالى: ﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ

---

(١) سورة الأنعام الآيات: ١٢٦-١٢٧.
(٢) سورة الأنعام الآية: ١٣٥.
(٣) في ظلال القرآن، ج٣، ص١٢١١.
(٤) سورة النساء الآية:٥٨.
(٥) في ظلال القرآن، ص٦٨٩.
(٦) سورة النمل الآية: ٣٢.
(٧) مفاتح فهم القرآن، ص٣٧٩.

أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾⁽¹⁾ لما رأت ميلهم إلى الحرب والقتال، وكان رأيها الميل للصلح ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾⁽²⁾ .

وفي قصة سيدنا موسى وهي أيضاً كقصة سبأ مرتبطة بحماية حدود سياسية (إقليم) مباشرة كما في الأخيرة أو متعلقة بتقوية الحكم الذي يؤدي أيضاً إلى حماية كيان دولة، إذ طلب موسى عليه السلام من المولى تعالى تعضيد حكمه بالقوة والمشاورة والإشراك في الأفعال في مواجهة فرعون﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾⁽³⁾ ليستقر لهما الأمر من بعد ويتفرغا لدعوة الناس للإيمان ﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾⁽⁴⁾ يسأل موسى عليه السلام عن أمر خارجي هو مساعدة أخيه هارون له ﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴾

قال مجاهد: ظهري، ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾ أي في مشاورتي⁽⁵⁾.

- **تميّز الوجهة والخطاب :**

يكتمل بنيان الحكم وبقاء الإقليم بالخطاب الإيماني القاطع الحازم الذي لا تردد فيه ولا غبش يتخلله، إذ فيه القوة المقرونة بالحكمة إذ بهما تبلغ غاية كمال الحكم⁽⁶⁾ عليه يجتمع المجتمع المؤمن داخل حدود سياسية لدولة وبأمل يرجى أن لا يكون عزيز المنال يجتمع كل المؤمنين في إطار جامع دولة واحدة بلا تطرُّف ولا تحزُّب ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ

---

(١) سورة النمل الآية:٣٤.
(٢) سورة النمل الآية:٣٣.
(٣) سورة طه الآيات: ٢٤-٣٢.
(٤) سورة طه الآيات: ٣٣-٣٤
(٥) ابن كثير، ج٥، ص١٧٣.
(٦) في ظلال القرآن، ص٣٠١٧.

﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾(١)، برباطٍ واحدٍ ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾(٢).

مجتمع يؤسّس على توحيد الله وتوحيد الدين والأمة والقبلة ويؤسّس كذلك على المواخاة بين المسلمين دون تمايز بلون أو جنس إلا بالتقوى مع إقرار البلدان والأقوام والشعوب الأخرى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(٣).

وحمل لواء الدعوة لهذه الأقوام بيقين تام بعموم الرسالة للجنس البشري باحترام آدمية الأقوام(٤) بعدم الاستهانة بهم وتصغيرهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾(٥).

ومن ثم دعوة هذه الدول بالدخول للإسلام على نهج رسولنا الكريم الذي أرسل الرسل والكتب منذ السنة السادسة للهجرة إلى الملوك والأمراء إذ بعث إلى (هرقل) إمبراطور الروم، و(كسرى) فارس و(النجاشي) ملك الحبشة وغيرهم(٦) وذلك باستخدام جميع وسائل الخطاب في الدبلوماسية التي كانت يعرفها العرب منذ الجاهلية بموقعها الجغرافي كملتقى طرق إلا أنَّه في زمن الرسول أخذت هذه الدبلوماسية مظهراً جديداً إذ استهدفت الدعوة بدلاً من التجارة التي كانت عند العرب(٧).

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ٩٢.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الحجرات الآية: ١٣.

(٤) ينهي الله تعالى عن السخرية بالناس واحتقارهم والاستهزاء بهم كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال (الكبر بطر الحق وغمص الناس) وروي (وغمط الناس) . ابن كثير، ج٧، ص١٢٤٤.

(٥) الحجرات الآية:١١.

(٦) د.حسن إبراهيم، مرجع سابق، ص١٩٦.

(٧) د.الشيخ الأمين محمد عوض، الدبلوماسية في الإسلام، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ط١، ص: د،هـ.

بهذه المبادئ يحصل التمكين كما الأمم المؤمنة السابقة تمكنّت تمكناً مادياً بالمحسوسات –وجود أقاليم (دول) قائمة تحت سمع وبصر العالم– وتمكّن معنوي إيماناً في الفؤاد إذ بالأخيرة بُزت الأمم الكافرة في الأمم السابقة[1]﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[2].

نتائج البحث

تتلخص النتائج في الآتي:

[١] وضوح الدلالة الأصيلة لمصطلح الإقليم ودلالاته المختلفة في آيات القرآن.

[٢] إمكان الإقرار بالإقليم كوحدة سياسية يدخل في إطار الأصل العقدي في إنشاء الأمة وتَلزمُه إقامةُ دولة.

[٣] تتأكد أهمية الإقليم كدلالة مكانية بحضورها حتى في مواقع وصف السلطة السياسية الأمم والشعوب ومصائرهم مما يجعل من المدافعة عنه ضرورة دنيوية ودينية.

[٤] الإقليم كوحدة سياسية في الإسلام يلزمه دعائم تقوية وبقاء يجب العمل على تحقيقه كمطلوب ديني من حرمة الإقليم، الإبقاء بضرورات الواقع في التعامل مع الغير، ورعاية مبادئ الحكم الشرعي كل ذلك من جانب الدولة بالإضافة إلى واجبات الفرد خاصة مبدأ العدل في الحكم.

[٥] اهتم الإسلام بتنظيم كل جوانب الحياة بما يضمن حياة الفرد والجماعة مع ترسيم وتحديد العلاقات النهائية بين الأقاليم المسلمة (الدول) وغير المسلمة مع تقرير إمكانية

---

[1] جاء في ابن كثير، ج٧، ص١٨٦٠ "مكنا الأمم السابقة في الدنيا من الأموال والأولاد وأعطيناهم منها مالم نعطه مثله ولا قريباً منه).

[2] سورة الأحقاف الآية: ٢٦

علاقات التعايش في ظل بقاء الأصل الشرعي في المدافعة كلما جدت ظروف وذلك وفق مواثيق أو ما أشار إليه القرآن الكريم في مواضع كثيرة.

[٦] مشروعية التعامل مع أرض وديار المسلمين كوطنٍ ومشروعية المفهوم القومي والوطني للدولة عند المسلمين بلا حرج باعتباره جزءاً من حفظ بيضة الدين وحوزة الإسلام. والتأكيد على شرعية الوطنية كعاطفة غير منفصلة عن الدين والعقيدة المرتبطة بالحق والشرع وإحصانه.

والله المستعان